



الفصل الثاني مراحل التوبة وشروطها



هي مراحل لأنها تأتي متتالية، ولها شروط لا تصح التوبة بدونها:

مرحلة العلم:

التائب من الذنب لابد أن يعرف ثلاثة أمور:

الأول: أنه إنسان، وكل بني آدم خطاء.

الثاني: أن ربه واسع المغفرة والرحمة، وسريع الحساب.

الثالث: أنه ارتكب ذنبًا.

فإذا لم يعرف الأول سيصعب عليه الإنابة إلى الله والتوبة والاستغفار، وإن لم يعرف الثاني سيكون من القانطين من رحمة الله، وإذا لم يعرف الثالث سيهون عليه ما يفعل، ويزداد إثمًا وبغيًا وظلمًا، وسيحسب أنه يحسن صنعًا، وتزين له نفسه أعماله.

وفي الحالة الأولى: لنا في توبة الرسل والأنبياء قدوة حسنة، ودراسة تاريخ البشر وعاقبة المفسدين في الأرض، وهو أمر إلهي يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران].

وفي الحالة الثانية: فإن العلم بصفات الله عز وجل وقدرته وحكمته، وكثرة قراءة القرآن، والتقرب إلى الله الرحيم، باب ميسر للعلم عن كيفية التوبة.

وفي الحالة الثالثة: فإن معرفة الذنوب وأنواعها وتصنيفاتها، والآيات التي تذكرها، والأحاديث التي تحذر منها، شفاء لما في الصدور، ونور لطريق المؤمنة في التوبة إلى الله ودوامها.



مرحلة الندم:

وهي الأسف والتحسر النفسى والقلبى والعقلى على ما ارتكب الإنسان من آثام، وكلما كان الندم أشد كلما كان تكفير الذنوب أرجى، يقول الرسول ﷺ: «الندم توبة»^(١).

ويندم الإنسان على الذنب عندما يقتنع - تمام الاقتناع - بأنه ارتكب ذنبًا، وأنه أضر بنفسه وغيره، وأنه سيقع عليه عقاب شديد، وأنه لا بد له من الرجوع عنه.

إنه أحس وأدرك الخطر الواقع عليه.

وتحتاج الأخت إلى كثير من التطهير النفسى، والبعد عن أهوائها وغواية الشيطان وحزبه، الذين يقللون هذا الإحساس بالأسف، ويزينون العمل السيئ لصاحبه.

وتحتاج إلى مجالسة الصالحين التوايين الأوابين لله؛ فهى تزيد رضا الإنسان عن نفسه عند التوبة، وتزيد من تحمله للحزن والأسى القلبى، الناتج عن الندم؛ فهو يتحمل مرارة الدواء من أجل الشفاء.

مرحلة الإقلاع عن الذنب، ورد الحقوق لأصحابها:

هى المرحلة الإيجابية فى التوبة، وهى مرحلة التغيير من طور إلى آخر، ومن حال إلى أخرى، وتظهر على الوجه والجسد، ومحسها القلب والروح، فتحسن المشاعر والأحاسيس، وتستقيم الأمور ويتغير الأصحاب، ويتغير أسلوب الحياة والتعامل مع الناس، فتظهر بشاشة على الوجه ونور التوبة يحسه ويشاهده من يتعامل مع التائب، فتصفو البشرة ويصفو القلب، ويرد للناس مظالمهم، فيسعدوا باسترداد حقوقهم، وتزول الشحناء والبغضاء، وتزداد الألفة والمحبة بين الأطراف، التى كانت - ربما من لحظات - أعداء، فإذا بهم أولياء بعض.

ولتذكر قول الله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَتْ].

كما تتطلب هذه المرحلة رد المظالم إلى أصحابها، وطلب الرضا منهم، والاعتذار والأسف إليهم بعد رد حقوقهم المسلوبة، والتى ربما انتفع بها المذنب، وحرّم صاحبها منها مدة من

(١) الحاكم فى المستدرک (٤/٢٤٣) وصححه، ووافقه الذهبى، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٢).



الزمن، فإنها كذلك تتطلب فيما يتعلق بحقوق الله عز وجل، والفروض التي ضيعها المذنب، أن يؤديها قبل أن يدركه الموت أو المرض أو الفقر أو الشيخوخة.

فإذا لم تكن الفتاة تصلي الفروض، فيجب عليها أن تؤديها بعد كل صلاة، وإذا لم تكن حجت وهي مستطاعة، فيجب أن تؤدي فريضة الحج، وإذا لم تزكى، فتجتهد في أداء الفريضة، وتكثر من الصدقات، وأن تؤدي حق الله في مالها، وإن قصرت في الصيام فعليها القضاء، وتتبع سنة الرسول ﷺ في اختيار أفضل الأيام في الصيام، فلا وصال في الصوم، يعني لا تصوم شهراً كاملاً إلا رمضان، ولكن أحب الصيام إلى الله صيام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً^(١).

مرحلة العزم لعدم الرجوع للذنب:

وهي تعني الجدية في أمر التوبة إلى الله، وعقد النية الصادقة، مصمماً على العمل، وهي تتضمن الثبات والصبر والجد في العمل، وأكثر الأخلاق ارتباطاً بالعزم في الإسلام هو الصبر.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى]، وفي سورة لقمان: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان]، وفي سورة آل عمران: ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَتَقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران].

أسباب صعوبة مرحلة العزم:

- طبيعة الإنسان النسيان:

فربما وضع خطة ومشى في جزء منها، ثم نسي أهدافه الأساسية، فضاع في طرق عشوائية، ولم يصل لهدفه، وربما أقر واعترف بذنبه، وقرر عدم الرجوع إليه، ولكنه بعد معاودة حياته السابقة، يجد نفسه يكرر الخطأ دون أن يشعر، ثم ينسى اعترافه وندمه على الذنب فيما مضى.

يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِیَ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه].

- عدم التوكل على الله حق توكله:

فتعتقد الفتاة أن الله سيحسن لها أحوالها دون أن تعمل وتجتهد وتحسن العمل وتتقنه؛ مما

(١) البخارى في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠).



يؤدي إلى فقدان عنصر الجدية في العزم، يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- ضعف التقوى؛

مرحلة العزم تحتاج إلى تقوية تقوى الله وخشيته في السر والعلن، والامتنثال لأوامره واجتناب نواهيه، وامتنثال طاعة الله ورسوله في كل الأمور؛ فمثل هذا الأمر سيجعل التائبة في حالة استقامة دائمة، فلا تتوب من ذنب لتقع في ذنب آخر، ولا تقدم على صنع شيء فتضر نفسها أو غيرها، وتغضب أصحاب الأمر والفضل عليها؛ كالوالدين أو الزوج أو مدير العمل أو المعلم.

ولصعوبة هذه الاستقامة، نجد عظم الثواب في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١) ﴿نُزُلًا مِّنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ﴾ (٣٢) [فصلت]. ويقول تعالى في سورة النور: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢) [النور].

ويعطى الله هدية التقوى لكل من سار في طريق الهداية، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ (١٧) [محمد].

- هي مرحلة تحمل المشاق والبلوى والأذى؛ لذلك فلا بد ولا غنى عن الصبر في مرحلة العزم.

ولذلك فإن الأجر من جنس العمل، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٠) [الزمر]، وفي سورة يوسف: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) [يوسف]، وفي سورة الرعد: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٤٤) [الرعد].